العلاقة بين علم الحِجاج وعلم أصول الفقه

The relationship between the science of argument and the science of jurisprudence evidences

إعداد

الأستاذ الدكتور/ أحمد بن عبدالله بن محمد الضويحي

الأستاذ في قسم أصول الفقه

بكلية الشريعة بالرياض

١٤٣٦هـ

الكلمات الدالة :

(الحجاج : الجدل) ، (أصول الفقه) ، (علاقة) ، (أثر) ، (جهود)

Key words :

(Argument) , (jurisprudence evidences) , (Relationship) ,

(Impact) , (Efforts)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، أما بعد : -

فهذه ورقة مختصرة في موضوع : (العلاقة بين علم الحجاج وعلم أصول الفقه) أردت أن أشارك بها في الملتقى الدولي : (مباحث الحجاج بين التنظير و الإجراء) الذي ينظمه مختبر اللغة والتواصل ومعهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي بغليزان ، وهي -كما يظهر من عنوانها - تدخل ضمن المحور الأول من محاور الملتقى : (النظريات الحجاجية وصلتها بمباحث العلوم الإنسانية) ، والهدف من ورائها دراسة الصلة بين علم الحجاج وعلم أصول الفقه من حيث التأثر والتأثير، حيث لا يخفى على المتخصصين في هذين الفنين أن العلاقة بينهما وثيقة وقديمة ، فقد كان لظهور علم الحجاج وانتشاره أثر واضح في بعض الجوانب الموضوعية والمنهجية لعلم الأصول ، وتأثر به أكثر علماء هذا الفن ، وخصوصاً من سلك منهم طريقة المتكلمين ، وبالمقابل فقد أسهم جمع من أعلام أصول الفقه في خدمة علم الحجاج ، من خلال تدوين بعض الكتب والمصنفات الخاصة التي تناولت أهم قضايا هذا الفن ، تنظيراً وتطبيقاً ، حتى غدت هذه الآثار من أهم المصادر التي لا يستغني عنها الباحثون وأهل الاختصاص في الحجاج والجدل .

وسأتناول في هذه الورقة العلاقة بين هذين العلمين من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف علم الحِجاج ، ونشأته وتطوره.

المبحث الثاني : أثر علم الحِجاج في أصول الفقه .

المبحث الثالث : جهود علماء الأصول في خدمة علم الحِجاج.

أسأل الباري جل شأنه أن يرزقني السداد في القول والعمل ، إنه سميع مجيب.

المبحث الأول

تعريف علم الحجاج، ونشأته وتطوره

علم الحجاج من العلوم القديمة التي ظهرت على أيدي المفكرين اليونانيين، ويمكن القول بأن أرسطو طاليس هو أول من لفت الأنظار إليه ووضع مبادئه الأساسية وفق تصور خاص كان ولا يزال مثار جدل عريض بين المختصين .

وقبل بيان المراد بهذا العلم لابد من تعريف الحجاج في اللغة والاصطلاح .

أولاً : تعريف الحجاج في اللغة:

الحجاج من الفعل: (حجَّ)، والحاء والجيم المضعفة لها أربعة معانٍ أصلية هي: القصد، والسَّنَة، والعظم المستدير حول العين، والنكوص[١]، وتطلقها العرب كذلك على بعض المعاني الأخرى كشحمة الأذن، والقياس، وفلق الهامة للعلاج ، وغيرها [٢] .

ومن المعنى الأول اشتقت الحجة، وذلك لأنها تُقصد، أو يُقصد بها الحق المطلوب ، يقال : حاججت فلاناً فحججته أي : غلبته بالحجة[٣].

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): "حاججت فلاناً فحججته أي غلبته بالحجة وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حجج ، والمصدر الحجاج" أ-هـ[٤].

والحجة هي : البرهان والدليل، وقيل إنها : ما دوفع به الخصم، وجمعها حجج وحجاج ، ويقال: حاجه محاجة وحجاجاً إذا نازعه الحجة ، وحجه يحجه حجاً إذا غلبه على حجته[٥].

---

(١)كتاب ابن فارس معجم مقاييس اللغة ١٣٢ – ٢٣٣، مادة"حج".

(٢)كتاب الأزهري تهذيب اللغة ٤٢١/١.

(٣)كتاب ابن فارس معجم مقاييس اللغة ٢٣٢ ، وكتاب الأزهري تهذيب اللغة ٤٢١/١ .

(٤)كتاب ابن فارس معجم مقياس اللغة ٢٣٢ .

(٥)انظر كتاب ابن منظور لسان العرب مادة "حجج" ٢٢٦/٢، وكتاب الأزهري تهذيب اللغة ٤٢١/١ وكتاب المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى ، وأحمد الزيات ، وحامد عبدالقادر، ومحمد النجار ٣٢٧/١، وكتاب الفيومي المصباح المنير ١٢١/١.

وحاصل القول أن كلمة الحِجاج تستعمل عند العرب كمصدر للفعل :

" حاجَّ " ، بمعنى : نازع خصمه في حجته، وتستخدم كذلك كجمع لمفرد الحجة، فتكون الحجاج : "الأدلة والبراهين".

ثانياً : تعريف الحِجاج في الاصطلاح:

يعتمد بعض الباحثين المعاصرين مفهوماً واسعاً للحجاج بالنظر إلى علاقة هذا الفن بفني الجدل والخطابة، وتعود جذور هذا المفهوم إلى أرسطو طاليس الذي بين وجوه هذه العلاقة في سياق كلامه عن مباديء الجدل ، ومباديء الخطابة، وتبعاً لهذه الرؤية نجد بعض الباحثين المعاصرين يجعل الحجاج على نوعين: (الحجاج الجدلي، والحجاج الخطبي) [١] .

وبغض النظر عن هذه الرؤية التي تعد مثار جدل قديم وحديث فإن علماء أصول الفقه، وأكثر المنظرين في علم الحِجاج من المسلمين وغيرهم يجعلون التفاعل والتدافع ركناً أساسياً في ماهية الحجاج، ولهذا نجد أنهم في تعريفاتهم يركزون على هذا المعنى .

قال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ): "الجدل والجدال إخبار كل واحد من المختلفين بحجته، أو بما يقدر أنه حجته، وقد يكون أحدهما محقاً والآخر مبطلاً إما في لفظه وإما في مراده أو في كليهما ولا سبيل أن يكونا معاً محقين في ألفاظهما ومعانيها" أ-هـ[٢].

وقال القاضي أبو يعلى (ت ٤٥٨هـ) : "وأما الجدل فهو تردد الكلام بين اثنين إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول صاحبه"أ-هـ[٣].

---

(١) انظر بحث ابن أحمد عالم فايزة علاقة الحجاج بالخطابة والجدل المنشور إلكترونياً في موقع مجلة فكر ولغة الصادرة عن جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم – كلية الآداب والفنون.

(٢)كتاب ابن حزم الإحكام في أصول الأحكام ٤٥/١.

(٣)كتاب أبي يعلى العدة في أصول الفقه ١٨٤/١ .

ونص الجويني (ت ٤٧٨هـ) على أن الحجاج لا يكون إلا بين اثنين، وأنه لا فرق بينه وبين الجدل والمناظرة في الاصطلاح – وإن كان هنالك بينهما فرق في اللغة[١]– ثم أورد جملة من تعريفات الأصوليين لهذا المصطلح ، فذكر أن منهم من يعرفه بأنه : (دفع الخصم بحجة أو شبهة)، ومنهم من يعرفه بأنه: (تحقيق الحق وتزهيق الباطل)، ومنهم من يعرفه بأنه: (نظر مشترك بين اثنين)، ومنهم من يعرفه بأنه: (طلب الحكم بالفكر مع الخصم) [٢].

وبعد أن انتقد هذه التعريفات ولم يرتضِ شيئاً منها ، اختار بأن يعرف الحجاج بأنه: "إظهار المتنازعين مقتضي نظرتها على التدافع والتنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة"[٣].

فالجويني الذي يعد الحجاج مرادفاً للجدل يجعله "أسلوبا من أساليب النظر الموصل للحقيقة من خلال التدافع والتنافي الذي لا يزيد الوصول إلى الحقيقة إلا قوة ووضوحاً "[٤].

وأما أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) فهو كذلك ير ى أنه لا فرق بين الحجاج والجدل[٥] ، ولهذا سمى كتابه في الجدل: "المنهاج في ترتيب الحجاج" ، وعرف الجدل بأنه: "تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منها تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه" [٦].

وبين أهمية هذا الفن بقوله : "وهذا العلم من أرفع العلوم قدراً وأعظمها شأناً لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع

---

(١)انظر كتاب الجويني الكافية في الجدل ١٩،

(٢)المصدر السابق ٢٠-٢١ .

(٣)المصدر السابق ٢١ .

(٤) انظر مقدمة محقق كتاب الكافية للجويني ص ٢٨ .

(٥) انظر كتاب الباجي المنهاج في ترتيب الحجاج ص ٧ .

(٦) المصدر السابق ص ١١ .

في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم"[1].

وهكذا دأب أكثر علماء الأصول الذين كانت لهم مصنفات خاصة في هذا الفن كالغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، وابن عقيل (ت ٥١٣هـ) ، والطوفي (ت ٧١٦هـ) وغيرهم، حيث يلاحظ الناظر في تعريفهم للجدل أنهم يجعلونه مرادفاً للحجاج ، وقد نقل الطوفي في كتابه (علم الجذل في علم الجدل) جملة من تعريفات الأصوليين التي تعبر عن هذا المعنى[2].

واختار أن يعرفه بأنه: "رد الخصم عن رأيه إلى غيره بالحجة" أو: "علم أو آلة يتوصل بها إلى فتل الخصم عن رأيه إلى غيره بالدليل"[3].

---

(١)المصدر السابق ص ٨ .

(٢)انظر كتاب الطوفي علم الجدل ص ٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥ .

وحاصل القول أن التدافع والتفاعل ركن أساس في حقيقة الحجاج عند علماء أصول الفقه وغيرهم[١]، سواء كان التدافع بين اثنين على سبيل الحقيقة ، أو كان من قبل شخص واحد يعرض رأيه وحجته ، ورأي المخالف وحجته، ثم يعترض ، ويناقش ، ويجيب .

وعلى هذا يمكن تعريف علم الحجاج بما عرف به ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) علم الجدل حيث ذكر أنه: **"معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره"**[٢].

نشأة علم الحجاج وتطوره:

إن المتأمل في القرآن الكريم يدرك أن هذا المنهج في الحوار لم يكن مقتصراً على الجنس البشري ، فقد استعملته الملائكة بأدب مع الباري سبحانه وتعالى ، وأسرف فيه إبليس وأخطأ في قصة خلق آدم عليه السلام ، وأمر الملائكة بالسجود له، يقول سبحانه حكاية عن الملائكة: ((أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون))[٣]، ويقول سبحانه في شأن إبليس : ((قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين))[٤].

---

(١)انظر كتاب العكبري رسالة في أصول الفقه ١٢٤/١، وكتاب الجورجاني التعريفات ص٨٨، وكتاب الكفوي الكليات ص ٤٥٣، وكتاب أحمد مصطفى مفتاح السعادة ٣٠٤/١، وكتاب حاجي خليفةكشف الظنون ٥٧٩/١.

(٢)انظر كتاب ابن خلدون المقدمة ٤٢٣، وانظر كذلك كتاب أحمد مصطفى مفتاح السعادة ٣٠٤/١ .

(٣)سورة البقرة أية ٣٠ .

(٤)سورة الأعراف آية ١٢، انظر كتاب ابن جرير الطبري جامع البيان (تفسير الطبري) ٣٢٧/١٢، وكتاب البغوي معالم التنزيل ٢١٧/٣، وكتاب ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٩٣/٣ .

قال ابن جرير رحمه الله (ت ٣١٠هـ) : "ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان أول من قاس إبليس، يعنيان بذلك القياس الخطأ ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله وبُعده من إصابة الحق في الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه"(١).

فهذا المنهج في الحوار سابق لوجود البشر، وحينما خلق الله البشر وأودع فيهم هذه العقول كانوا أكثر الخلق إسرافاً في استعماله ، ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))(٢) ، وذلك لأن الحِجاج من أدوات النظر ، ومن أهم وسائل الحصول على المعرفة، ولم ينفك عنه أهل العقول منذ الأزل، وقد حكى الله سبحانه في القرآن الكريم نماذج من جدل الأمم السابقة لرسلهم، وكيف كان الرسل يحاجون أقوامهم ويقيمون عليهم البينة والبرهان، فالحجاج يوجد حيث وجد الفكر الإنساني ، لكنه لم يظهر كعلم مستقل بمبادئه وموضوعه إلا على أيدي فلاسفة اليونان الذين نظَّروا لهذا الفن ، ووضعوا قواعده ، ولبناته الأولى.

ومع ظهور الإسلام كان لهذا العلم دور ظاهر في إقامة الحجة على الناس ، وبيان الحق لهم، وتفنيد شبههم وأباطيلهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلجأ إليه في بعض الأحيان لتثبيت أصول الدين ، وإقامة الحجة على المشركين وأهل الكتاب،على وفق الهدى الرباني: ((وجادلهم بالتي هي أحسن "(٣))) ، ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن))(٤) ، وربما استخدمه أحيانا في بيان الأحكام الشرعية التي قد تلتبس على بعض الناس ، ولم يكن ينكر على من يستخدمه من الصحابة بغرض الفهم والمعرفة.

---

(١)كتاب الطبري جامع البيان (تفسير الطبري) ٣٢٧/١٢.

(٢)سورة الكهف ، آية ٥٤ .

(٣)سورة النحل ، آية ١٢٥ .

(٤)سورة العنكبوت آية ٦٢، يقول ابن جرير الطبري في تأويل هذه الآية :"إلا بالجميل من القول وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه" كتاب ابن جرير جامع البيان ٤٦/٢٠.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم يلجأون إلى هذا المنهج في تقرير الأحكام الشرعية في مسائل الفروع التي يختلفون فيها وتكون مستمسكاتها ظنية ، ولم ينقل عنهم سلوك هذا المنهج في مسائل العقائد وأصول الدين إلا نادراً .

وبعد انتشار الإسلام في المشرق والمغرب ، وتوسع الدولة الإسلامية ، واختلاط المسلمين بغيرهم ، وترجمة علوم اليونان - ومن ضمنها علم الحجاج والجدل - واطلاع بعض علماء المسلمين عليها لقي هذا العلم رواجاً بين بعض الفرق الإسلامية التي تقوم أصولها على العقل ، كالمعتزلة ، وغيرهم ، وكان له حضور ظاهر في علم الكلام ، واعتمدت عليه بعض الفرق الإسلامية في الدفاع عن أصولها ، وتفنيد حجج خصومها، ثم جرى التوسع في استعماله في علم الفروع مع شيوع الخلاف الفقهي ، وظهور المذاهب ، وانتشار ظاهرة التعصب المذهبي[1]، كما لجأ إليه أرباب العلوم الأخرى في بيان القضايا والنظريات المتعلقة بهذه العلوم ، ولا يزال هذا العلم أداة منهجية معتبرة يستخدمها العقلاء في تقرير الآراء والنظريات ، والدفاع عنها، وإبطال حجج المخالفين، في جميع العلوم والمعارف .

(١)انظر كتاب الغزالي إحياء علوم الدين ٤٢/١.

المبحث الثاني

أثر علم الحجاج في أصول الفقه

لا يخفي على من له أدنى صلة بعلم أصول الفقه أن هذا العلم من أكثر العلوم الإسلامية تأثراً بعلم الحجاج والجدل، وأن علماء الأصول من أكثر أرباب العلوم الإسلامية براعة في استثمار قوانين هذا العلم في تقرير القواعد الأصولية، والاحتجاج لها، والدفاع عنها، ونقض شبهة المخالفين، بل والاحتراز عنها، وما يتبع ذلك من ضبط الحدود، والمصطلحات ، والمباديء التي لا يستغنى عنها في هذا العلم، وما ذاك إلا لأن أصول الفقه يقوم على المزاوجة بين العقل والسمع ، والرأي والشرع، كما نص على ذلك الغزالي وغيره [1]:

ويظهر أثر علم الحِجاج في أصول الفقه جلياً في جانبي المنهج والموضوع.

أما من حيث المنهج:

فيمكن للمتأمل في كتب علماء الأصول أن يدرك هذا الأثر بوضوح من خلال عناية الأصوليين بترتيب المادة الأصولية على وجه الإجمال والتفصيل، وبناء القواعد على أسس منهجية سليمة ، مع الحرص على إقامة الحجج والبراهين على كل قاعدة بما يناسبها من الدلائل الشرعية ، أو العقلية، أو اللغوية، وبيان حجج المخالفين، والجوانب عنها، بل ربما عمد بعضهم إلى استباق الاعتراضات والمطاعن الممكنة والمحتملة، فصار في سعيه لتقرير القاعدة أو الحد كأنه يناظر نفسه ، أو يفترض مناظراً يجادله في هذا الأمر .

ويعد الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) - وهو رائد علم أصول الفقه وأول من صنف فيه كتاباً مستقلاً - أول من سلك هذا المنهج في تقريره لقواعد الأصول، وبغض النظر عن دعوى تأثره بعلوم اليونان أو عدم تأثره بها[2]، فإن اعتماده الأسلوب

---

(١)انظر كتاب الغزالي المستصفي ٣/١.

(٢)مسألة تأثر الشافعي رحمه الله بعلوم اليونان مسألة مهمة تعرض لها جملة من الباحثين المعاصرين، ومن قرأ سيرة الشافعي بتمعن و تحرى العدل والإنصاف أمكنة الجزم بعدم تأثره بهذه العلوم في فقهه وأصوله، وأما تميزه عن غيره في الجوانب العقلية والفلسفية فمرده =

الحجاجي الجدلي القائم على التفاعل والتدافع في كتبه كلها ، - وفي كتاب الرسالة، وجماع العلم، وإبطال الاستحسان على وجه التحديد - أمر في غاية الظهور، ويمكن أن يدركه كل مطلع على هذه الكتب[1].

وقد سلك علماء أصول الفقه بعد الشافعي – وخصوصاً من صنف منهم في هذا العلم على طريقة المتكلمين – المنهج ذاته، بل جرى التوسع في استثمار قوانين الحجاج في أصول الفقه تبعاً لتوسع المادة الأصولية، واشتداد الخلاف في بعض قواعد هذا العلم ومسائله، ومن تأمل كتب أعلام هذا الفن كالقاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ، والجويني (ت ٤٧٨هـ) والغزالي (ت ٥٠٥هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، والآمدي (ت٦٣١هـ) ، وغيرهم أدرك الأثر الظاهر لعلم الحجاج في الجوانب المنهجية لهذه المصنفات.

وأما من حيث الموضوع:

فيظهر الأثر واضحاً من خلال تلك الأدلة والحجج العقلية المتنوعة التي اعتمد عليها أكثر الأصوليين في تقرير أصولهم، وهي أنماط جديدة من الاستدلال أخذها الأصوليون من علم الحجاج ولم تكن معروفة لدى الصحابة والتابعين، إضافة إلى القوادح والأسئلة والاعتراضات الواردة على الاستدلال بالأدلة والتي جعلها بعضهم جزء

= إلى الموهبة الفطرية والملكة الفكرية التي اكتسبها بطبيعته كإنسان مفكر ، إذ كل العلوم العقلية يمكن أن تكتسب بهذا الطريق – كما قرر ذلك ابن خلدون وغيره انظر: (انظر كتاب ابن خلدون المقدمة ص ٤٤١ – ٤٤٢) ، وكتاب حاجي خليفة كشف الظنون ١٨٦٣/٢) – وانظر في مسألة تأثر الشافعي بعلوم اليونان : كتاب الدكتور أحمد الضويحي علم أصول الفقه من التدوين إلى نهاية القرن الرابع الهجري ٤٤١/١ – ٤٥٣.

(١) انظر كتاب الدكتور أحمد الضويحي علم أصول الفقه من التدوين إلى نهاية القرن الرابع الهجري ٣٠٣-٣٢٠، ٣٩٩،٣٤٧.

لا يتجزأ من مباحث الاستدلال بالأدلة السمعية والعقلية، مع أنها في الأصل تعد من موضوعات علم الحجاج والجدل، كما ذكر ذلك الغزالي وغيره [١].

ويمكن أن نجد أثر علم الحجاج في علم الأصول في الجانب الموضوعي كذلك من خلال تلك المصطلحات الجدلية التي تتردد على ألسنة علماء الأصول في ثنايا بيان الاعتراض على القاعدة، والجواب عنه، ومن خلال عنايتهم بصيانة الحدود والتعريفات، وضبطها على وفق قوانين المنطق، بل ربما عمد بعضهم إلى إثبات الأدلة بالأسلوب الحجاجي كما فعل الشيرازي في الملخص والمعونة ،و الجويني في الكافية، والباجي في المنهاج، وغيرهم.

ولعل دخول قضايا الحجاج والجدل في بعض الجوانب الموضوعية لعلم الأصول هو الذي جعل بعض الأصوليين يعد الجدل جزء من أصول الفقه، حتى إن ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) سمى كتابه في الأصول : "منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل" .

وهذه الحقيقة أعني أن الحجاج والجدل من فروع علم أصول الفقه جزم بها أكثر الذين صنفوا في حصر العلوم والفنون .

قال ابن خلدون : "أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات"[٢]، وقال صاحب مفتاح السعادة: "فروع علم أصول الفقه: علم النظر، وعلم المناظرة، وعلم الجدل، وعلم الخلاف"[٣].

ويلخص الطوفي رحمه الله العلاقة بين هذين العلمين بقوله : " واعلم أن مادة الجدل أصول الفقه من حيث هي، إذ نسبته إليها نسبة معرفة نظم الشعر إلى معرفة أصل اللغة، فالجدل إذن أصول فقه خاص، فهي تلزم الجدل وهو لا يلزمها لأنها أعم منه وهو أخص منها" أ – هـ[٤].

---

(١)انظر كتاب الغزالي المستصفى ٢/٣٤٩-٣٥٠.

(٢)كتاب ابن خلدون المقدمة ٤١٨.

(٣)كتاب أحمد مصطفى مفتاح السعادة ٥٩٨ – ٥٩٩.

(٤)كتاب الطوفي علم الجدل ٣٥.

المبحث الثالث

جهود علماء الأصول في خدمة علم الحجاج

إذا كان علماء الأصول قد تأثروا بعلم الحجاج واستثمروا قوانين هذا العلم ومبادئه في إثبات القضايا الأصولية كغيرهم من أرباب العلوم الأخرى ، فإنهم – من دون شك – أكثر من خدم الحجاج والجدل، ويمكن القول بأن لهم اليد الطولى في هذه الصناعة تنظيراً وتطبيقاً.

وإذا كانت المؤلفات الأولى في أصول الفقه كرسالة الشافعي وآثار أعلام الأصول في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع قد ظهرت فيها بوادر تطبيق قوانين الحجاج والجدل من خلال ما تميزت به هذه الآثار من ترتيب القضايا الأصولية واعتماد المنهج الجدلي في إثبات الأدلة والقواعد، والالتزام بقواعد هذا الفن في المسائل الخلافية التي عرض لها هؤلاء الأعلام، فإن خدمة علم الحجاج من الجانب النظري قد تلت هذه المرحلة تبعاً للتوسع في التأليف الأصولي على منهج المتكلمين والفقهاء، ويمكن للناظر في المؤلفات الأصولية في نهاية القرن الرابع والخامس وما بعدهما أن يلاحظ أن هذه الآثار قد تضمنت بعض الإشارات إلى الجوانب النظرية لهذه الصناعة، وظهر فيها بجلاء التطبيق العملي لمبادئ هذا العلم وقوانينه ، من خلال العناية بالمقدمات ، وصيانة الحدود ، والتزام قواعد الجدل في الاستدلال ، والاعتراض ، والجواب ، وهو الأمر الذي يمكن أن يدركه كل مطلع على كتب أبرز أعلام هذا الفن كالباقلاني في التقريب والإرشاد، والقاضي عبد الجبار في العمد ، وأبي الحسين البصري في المعتمد ، والقاضي أبي يعلي في العدة ، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه الذي عقد باباً مستقلاً في هذا الفن، وأبي إسحاق الشيرازي في كتبه : اللمع ، وشرحها ، والتبصرة، والجويني في البرهان ، والتلخيص، والباجي في الإحكام، والغزالي في المستصفى ، والمنخول، وكتبه الأخرى في

القياس، وأبي الخطاب في التمهيد، وابن عقيل في الواضح، والرازي في المحصول، والآمدي في الإحكام ،وغيرهم[1].

وصاحب ذلك ظهور مؤلفات مستقلة لعلماء الأصول في هذا الفن ، ويمكن القول بأن من أوائل من صنف في هذا العلم استقلالاً أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) حينما صنف كتاباً سماه : (أدب الجدل)، ثم تبعه بعد ذلك جملة من أعلام أصول الفقه كالكعبي (ت ٣٢٧هـ) في كتابه: (تجريد الجدل) أو: (التهذيب في الجدل)، وأبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) في كتابه: (الجدل)، وأبو علي الطبري (ت ٣٥٠هـ) في كتابه (الجدل) ، وأبو بكر القفال الشاشي (ت٣٦٥هـ) في كتابه الجدل، وأبو القاسم الدراكي (ت٣٧٥) في كتابه: (المدخل في الجدل) ، وأبو بكر الباقلاني (ت٤١٥هـ) في كتابه : (شرح أدب الجدل)، والقاضي عبد الجبار الهمداني (ت٤١٥هـ) في كتابيه : (أدب الجدل)، و (العمدة في الجدل) ، وأبو إسحاق الإسفراييني (ت٤١٨هـ) في كتابه: (أدب الجدل) ، وأبو القاسم الاسفرايني (ت٤٥٢هـ) في كتابه (الجدل) ، وأبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) في كتابه: (المنهاج في ترتيب الحجاج) ، وأبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) في كتابه (الملخص)، (ومختصره : المعونه)، وأبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ) في كتابه (الكافية)، والغزالي (ت٥٠٥هـ) في كتابه : (المنتحل في علم الجدل) ، وابن عقيل الحنبلي (ت ٥١٣هـ) في كتابه : (الجدل على طريقة الفقهاء)، والرازي (ت ٦٠٦هـ) الذي صنف عدة كتب في هذا الفن أهمها : (الجدل والكاشف عن أصول الدلائل وفصول العلل)، و: (رد الجدل) و(عشرة ألاف نكتة في الجدل) ، و(الطريقة في الجدل) ، والآمدي (ت ٦٣١هـ) في كتابه : (غاية الأمل في علم الجدل)، وابن الجوزي الحنبلي (ت ٦٥٦هـ) في كتابه: (الإيضاح لقوانين الاصطلاح)، والطوفي (ت٧١٣هـ) الذي صنف كتاباً سماه: (علم

(١)انظر كتاب ابن الجوزي الإيضاح في قوانين الاصطلاح ٥٤، وكتاب الدكتور مسعود فلوسي الجدل عند الأصوليين بين النظرية والتطبيق ١٠٠-١١٤.

الجدل في علم الجدل) ، وغيرهم كثير، كما هو مثبت في كتب العلوم ، والفنون ، و التراجم ، والطبقات[1].

وأغلب مؤلفات علماء الأصول في الحجاج والجدل لم تصل إلينا، وما وصل إلينا منها يعد شيئاً يسيراً قياساً بعشرات الكتب والآثار التي أشار إليها علماء التراجم والطبقات والمختصون في العلوم والفنون ، كصاحب كشف الظنون، ومفتاح السعادة ، وغيرهم .

وأهم الكتب التي وصلت إلينا ما يأتي :

١- كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج لأبي الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) .

٢- الملخص ، ومختصره : (المعونة) لأبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ).

٣- الكافية في الجدل لأبي المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ).

٤- الجدل على طريقة الفقهاء لابن عقيل الحنبلي (ت٥١٣هـ).

٥- الإيضاح لقوانين الاصطلاح لابن الجوزي (ت٦٥٦).

٦- علم الجذل في علم الجدل لنجم الدين الطوفي (ت٧١٦هـ).

ومؤلفات أعلام الأصول في علم الحجاج والجدل وإن كان موضوعة في الأصل لخدمة أصول الفقه إلا أن واقعها ومحتواها يشهد بأنها أهم مصادر الجانب النظري لهذا الفن، ويمكن أن يعتمد عليها جميع أرباب الفنون التي تعتمد على الحجاج، فقد اعتنى الأصوليون بتعريف هذا الفن، وبيان موضوعه، وتاريخ نشأته وظهوره، وأهميته، وفصلوا القول في أركانه ، وشروطه، وآدابه، وقوانينه، وأساليبه، وأدواته، ومصطلحاته.

وتميز عدد منهم بالجمع بين الجانب النظري والجانب التطبيقي من خلال إثبات الأدلة السمعية والعقلية بواسطة الحجاج والجدل - كما فعل الباجي والشيرازي

---

(١) انظر كتاب الذهبي سير أعلام النبلاء ٨٨/١٥، ٦٣/١٦، ٣٣٤/١٩، وكتاب الفيروز أبادي طبقات الفقهاء ١٢٣،وكتاب أبي الحسين البصري شرح العمد ٤٣/١، وكتاب حاجي خليفة كشف الظنون ٥٨/١، ٣١١، ٣٤٥، وكتاب ابن الجوزي الإيضاح لقوانين الاصطلاح ٥٥، وكتاب الطوفي الجدل عند الأصوليين ٩٨ - ١٣١، وكتاب الضويحي علم أصول الفقه من التدوين إلى نهاية القرن الرابع الهجري ٩٠٨/٢ – ٩٠٩ .

والجويني وابن عقيل وغيرهم - ، أو من خلال العناية بالأمثلة والشواهد على الحجاج والجدل في الأدلة والدلالات - كما فعل ابن الجوزي في الإيضاح- ، أو من خلال استقراء أكثر الوقائع الجدلية في القرآن الكريم وتخريجها على القواعد الاستدلالية - كما فعل الطوفي في كتابه علم الجدل - .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين ، أما بعد:

فقد حاولت في هذه الأسطر القليلة رصد أبرز وجوه العلاقة بين علم الحِجاج وعلم أصول الفقه فكانت أهم النتائج التي خرجت بها من هذه الورقة ما يأتي:

١- علم الحجاج هو: "المعرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها **إلى حفظ رأي أو هدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره".**

٢- يعد التفاعل والتدافع ركناً من أركان ماهية الحجاج وعليه تدور أغلب تعريفات المتقدمين والمتأخرين لهذا الفن من المسلمين وغيرهم.

٣- الحجاج – كمنهج في الحوار – ليس مقتصراً على الجنس البشري ، فقد جرى استعماله من قبل الملائكة، ومن قبل إبليس، كما حكى ذلك القرآن الكريم، وحينما خلق الله بني آدم واستخلفهم في الأرض كانوا أكثر الخلق استعمالاً له باعتباره من أهم أدوات النظر العقلي واكتساب المعارف.

٤- جرى استعمال المنهج الحجاجي في القرآن والسنة وعلى ألسنة بعض الصحابة والتابعين لتثبيت أصول الدين، وإقامة الحجج والبراهين، وتفنيد شبه المخالفين والمبطلين.

٥- كانت مبادئ علم الحجاج ومصطلحاته وقوانينه من ضمن المعارف والعلوم العقلية التي تأثر بها بعض علماء المسلمين مع توسع العالم الإسلامي وترجمة علوم اليونان .

٦- يعد علم أصول الفقه من أكثر العلوم تأثراً بعلم الحجاج باعتبار طبيعته وموضوعه ، وقد ظهر أثر هذا العلم في بعض الجوانب المنهجية والموضوعية لعلم أصول الفقه.

٧- يعد علماء أصول الفقه أ كثر علماء المسلمين خدمة لعلم الحجاج ، حيث كانت لهم اليد الطولي في التأليف في هذا الفن تنظيراً وتطبيقا ، وتعد مصنفاتهم فيه أبرز المصادر التي يعتمد عليها أرباب العلوم المختلفة التي لا تستغني عن الحجاج والجدل.

وفي الختـام أسـأل البـاري جـل شـأنه أن يجعـل هـذا العمـل خالصـاً لوجهـه الكريم، وأن يغفر لي ما وقعت فيه من خطأ أو خلل أو زلل، إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

المصادر

١.الإحكام في أصول الأحكام، تأليف/ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي ، تحقيق/ لجنة من ا لعلما ء ، الناشر/ دار الحديث، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٤هـ

٢.إحياء علوم الدين، تأليف / أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، الناشر/ دار المعرفة للطباعة ، بيروت ، لبنان.

٣.الإيضاح لقوانين الاصطلاح (في الجدل الأصولي الفقهي)، تأليف/ أبي محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق/ د/ فهد السدحان، ا لناشر/ مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ

٤.التعريفات تأليف/ على بن محمد الجرجاني (ت٨١٦ هـ)، ضبط وفهرسه/ محمد عبد الحكيم القاضي ، الناشر/ دار الكتاب المصري ، الطبعة الأولى١٤١١هـ

٥.تفسير القرآن العظيم، تأليف/ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق/ سامي بن محمد سلامة، الناشر/ دار طيبة، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٠هـ

٦.تهذيب اللغة، تأليف/ أبي منصور محمد بن أحمد الهروي المكنى بالأزهري (ت٣٧٠هـ) الناشر/ موقع الوراق الالكتروني .

٧.جامع البيان في تأويل آي القرآن ، تأليف محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٠هـ ، الناشر/ مؤسسة الرسالة.

٨.الجدل علي طريقة الفقهاء ، تأليف/ أبي الوفاء علي بن عقيل بن محمد الحنبلي (ت٥١٣هـ) الناشر/ مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد ، مصر.

٩.الجدل عند الأصوليين بين النظرية والتطبيق، تأليف د/ مسعود بن موسى فلوسي، الناشر/ مكتبة الرشد، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ

١٠.رسالة في أصول الفقه، تأليف/ أبي علي الحسن بن شهاب بن الحسن العكبري الحنبلي، الناشر/ المكتبة المكية ، مكة المكرمة، تحقيق/ د: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، الطبعة الأولي ١٤١٣هـ

١١.سير أعلام النبلاء ، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ) ، أشرف على تحقيقه / شعيب الأرناؤوط، الناشر/ مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٣هـ.

١٢.شرح العمد ، تأليف/ أبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري (ت٤٣٦هـ) ، تحقيق الدكتور/ عبدالحميد أبو زنيد ، الناشر/ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ .

١٣.طبقات الفقهاء ، تأليف / أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي (ت٤٧٦هـ) ، تحقيق/ إحسان عباس ، الناشر/ دار الرائد العربي ، بيروت، لبنان.

١٤.العدة في أصول الفقه، تأليف/ أبي يعلي الفراء الحنبلي، تحقيق/ الدكتور: أحمد بن علي سير المباركي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ

١٥.علم ا لجدل، تأليف العلامة الفقيه/ سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم المعروف بنجم الدين الطوفي (ت٧١٦هـ)، تحقيق/ محمد عثمان ، الناشر/ مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ

١٦.علم أصول الفقه من التدوين إلى نهاية القرن الرابع الهجري (دراسة تاريخية استقرائية تحليلية) ، تأليف/ الدكتور أحمد بن عبد الله بن محمد الضويحي، الناشر/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ

١٧.الكافية في الجدل، تأليف / إمام الحرمين أ بي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨هـ) تقديم وتحقيق وتعليق الدكتورة/ فوقية حسين محمود، الناشر/ مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.

١٨.كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف/ مصطفي عبد الله الشهير بـ: "حاجي خليفة"، الناشر/ مكتبة المثني، بيروت ، لبنان .

١٩.الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تأليف/ أبي البقاء أيوب بن موسي الحسيني اللغوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، الناشر/ مؤسسة الرسالة ، بيروت، سنة ١٤١٩هـ.
٢٠.لسان العرب، تأليف/ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى .
٢١.المستصفى من علم الأصول، تأليف / أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ومعه كتاب فواتح الرحموت، الناشر/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية .
٢٢.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تأليف/ أحمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠هـ)، الناشر/ المكتبة العلمية، بيروت.
٢٣.معالم التنزيل، تأليف/ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ٥١٦هـ، تحقيق/ محمد النمر، وعثمان ضميرية، وسليمان المرشد، الناشر/ دار طيبة، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٧هـ.
٢٤.معجم مقاييس اللغة، تأليف/ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، الناشر/ دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولي ١٤٢٢هـ.
٢٥.المعجم الوسيط/ تأليف : إبراهيم مصطفي، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، الناشر/ مجمع اللغة العربية.
٢٦.المعونة في الجدل، تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي المعروف بالشيرازي (٤٧٦هـ) تحقيق : د/ علي بن عبد العزيز العميريني ، الناشر/ مركز المخطوطات والتراث بالكويت، الطبعة الأولي ١٤٠٧هـ.
٢٧.مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تأليف/ أحمد مصطفي، الشهير بـ: "طاش كبري زاده" مراجعة وتحقيق / كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبي النور، الناشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة ، مصر..

٢٨.مقدمة ابن خلدون، تأليف / العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، ضبط وشرح وتقديم/ د. محمد الاسكندراني، الناشر/ دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٧هـ
٢٩.المنهاج في ترتيب الحجاج ، تأليف أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤هـ) ،تحقيق/ عبد المجيد التركي ، الناشر/ دار الغرب الإسلامي الطبعة الثالثة ٢٠٠١م.

ملخص بحث

العلاقة بين علم الحِجاج وعلم أصول الفقه

هذا البحث يعنى بدراسة الصلة بين علم الحجاج وعلم أصول الفقه من حيث التأثر والتأثير، حيث لا يخفى على المتخصصين في هذين الفنين أن العلاقة بينهما وثيقة وقديمة ، فقد كان لظهور علم الحجاج وانتشاره أثر واضح في بعض الجوانب الموضوعية والمنهجية لعلم الأصول ، وتأثر به أكثر الأصوليين ، وخصوصاً من سلك منهم طريقة المتكلمين ، وبالمقابل فقد أسهم جمع من أعلام أصول الفقه في خدمة علم الحجاج ، من خلال تدوين بعض الكتب والمصنفات الخاصة التي تناولت أهم قضايا هذا الفن ، تنظيراً وتطبيقاً ، حتى غدت هذه الآثار من أهم المصادر التي لا يستغني عنها الباحثون وأهل الاختصاص .

وسأتناول في هذه الورقة العلاقة بين هذين العلمين من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف علم الحِجاج ، ونشأته وتطوره.

المبحث الثاني : أثر علم الحِجاج في أصول الفقه .

المبحث الثالث : جهود علماء الأصول في خدمة علم الحِجاج.

In the name of Allah ,most gracious and merciful

Abstract

The relationship between the science of argument and the science of jurisprudence evidences

This research handles the study of the relationship between the science of argument and the science of jurisprudence evidences in terms of vulnerability and impact , as it is obvious for specialists that the relationship between these two sciences is strong and old . The emergence of the science of argument and its spread had a clear impact on some subjective and methodological aspects for the science of evidences .Most evidences scientists were influenced by it ,especially the people of etymologies . on the contrary ,a group of the pioneers of jurisprudence evidences have contributed to serve the science of argument through writing down some special books and writings which handled the most important cases of this science , applying and contradictory, to the extent that these things have become indispensable resources for researchers and specialists .

I'll handle in this paper the relation between these two sciences through the following studies :

The first study : Definition of the science of argument , its inception and development

The second study :The effect of the science of argument on jurisprudence evidences

The second study : The efforts of jurisprudence evidences scientists in serving the science of argument.